حاجتنا إلى جيل جديد

بقلم الأستاذ سامى محمد

ذهنية الطفل فى دور الطفولة . كعدسة التصوير تسجل دائما كل ماتقع عليه عينها وتطبع ما يصادفها من حسن وقبح وأ كثر بيئاتنا المصرية لم تتأهل بعد لتكون الصورة الناصلة والمثل العليا التى تساهم فى بناء جيل جديد تقوم قواعده على الفضيلة والقوة والاستقلال الذاتى والشعور بالجمال فى لوحة الطبيعة ، وقد تزيد الجهالة فى تعقد الموقف فيحمل الأهل أبناءهم على تعاليم شائنة أو توجيههم وجهة غير صالحة لأنهم فى نظرهم أطفال . والطفل يظل فى عرفهم قاصراً تتحكم فيه آراؤهم البالية . وتنطبع عليه طبيعتهم ، فيعيش من المهد إلى اللحد كما أرادوه لا كما ينبغى أن يكون ..

فإذا صحت نظرية داروين الذى فاجأ بها العالم سنة ١٨٥٩ من أن جميع أنواع الحيوان قد انحدرت من أصل واحد وأنها تطورت وارتقت بانقراض السىء وبقاء الأصلح وأن الإنسان أحد هؤلاء الأنواع ؛ فلنا الحق أن نتساءل ولم لايكون المستقبل معدا لنوع من الإنسان يكون أكمل من النوع الحالى ، ولم لايكون الإنسان بفكره الحالى وتكوينه شيئا تافها بالنسبة لإنسان المستقبل . وإذا كنا نرى بوضوح بعد الموازنة بين الماضى والحاضر أن الحاضر لا يصح أن يكون موضعا لمقارنته بالماضى لما بلغه من تقدم وحضارة ولو أنها سارت سيرا حثيثا إلا أنها بلغت من الرقى مبلغا عظيما فيجب أن نعمل إذن على أن نندفع فى تيار التقدم بخطى ثابتة وأن نؤمن بأن الرقى الفكرى أساس كل نهضة وتقدم ونحن الشرقيين لا نختلف بأى حال عن هؤلاء الذين اخترعوا الطيارة والراديو والسينما وغيرها من المخترعات العلمية والفنية ولكننا والحمد لله لم نكلف أنفسنا حتى عناء فهم هذه المخترعات فضلا عن التفكير فى تقليدها فما علة هذا وما السر فى هذا النقص المشين ؟ أغلب الظن أن السر فى ذلك يرجع إلى أن عقليتنا وليدة تلك البيئات التى درجنا فيها وأخذنا عنها وطبعنا على ما فيها فجاءت صورة جامدة منها ، لأن الجيل القديم أحرص ما يكون على توجيه الجيل الجديد فى الطريق التى سلكها من قبل كما جاء الجيل القديم صورة مما قبله مع تطور يسير فظل الجيل الحاضر يسير على اختطاط الماضى الضاربة بالقرون الأولى وجاءت عقلية القرن العشرين صورة مكبرة من عقلية القرن الخامس عشر وستظل كذلك ما قام هذا النظام وعاش بين ظهرانينا وتظل محرومين من الانتفاع بالتيار العلمى والعالمى والاقتباس من شمس فنونه ورقيه المادى والأدبى .

على أن إعداد الجيل الجديد يجب أن نقسمه إلى قسمين : القسم الأول ، وهو قسم مهم فى حياة الجيل الجديد يتلخص ويترجم إلى البيت أو الأسرة وعلى رأسها الأم التى يجب أن تكون أولا متمدينة مثقفة شجاعة أخذت من التربية النفسية والنسوية قسطا كبيرا فيستطيع الطفل أن

يحكمه وأن يقلد ما تقوم به، وأن ينطبع فيه ما يراه من حيث لا يشعر، على أننا لا ننسى أن للأب دورا فى دور الشباب مكملا لدور الأم، والبيئة لدور الثالث فى هذا الشباب، فإذا أحكمت هذه الحلقات الثلاث أو الأدوار الثلاث واتسق بعضها ببعض استطاعت أن تنشئ الجيل الجديد على أحسن ما تكون التنشئة وتبنى الرجولة؛ ويجب أن يعالج الطفل ويربى عن طريق لغته التى يفهمها وأسلوبه الذى يتفق معه، فيجب ألا ينظر إليه من زاوية الرجولة ولا نأخذه بالأسلوب الذى لا يتناسب معه متناسين أن للطفولة أو للشباب حكمهما، ولدور الأم حكمها، فلا ينظر إلى وثباته ونشاطه بعين الطيش والخفة فى تصرفاته وأعماله وهو دائما فى حاجة إلى إرشاد غيره بلغته وأسلوبه الذى يفهمه، وإنا لنظلم الشاب إذا قسنا أخلاقه وتصرفاته بالمقاييس العتيقة وننسى أنه خاضع لتأثير التطور الجسمى والزمنى والاجتماعى والعلمى، فضلا عن أنه يستقبل اليوم عهدا جديدا من الحرية والاستقلال بالرأى فمن حقه إذا أن تكون له أساليب جديدة تساير العهد الجديد وتمتاز بطابع الرجولة والتفكير الحر والشجاعة فى إبداء الرأى والثبات على المبدأ والتبصر فى رأى المجموع تمييزا بين الصالح والطالح من الأعمال، ونرجو لا يغيب عن الذهن أبدا أن الإنسان لم يتقدم فى عالم المخترعات والابتكارات إلا لأنه تناولها بشىء من الحرية ساعده على التقدم والاختراع .

أما التعليم فيجب أن تقوم أسسه وتتجه مناهجه وجهة استقلالية تمتاز بروح الإقدام والابتكار، لأن نظام التعليم الحالى مع الأسف لم يعن العناية الكافية بتحديد الأغراض ورسم الخطط التى توافق وضعية البلاد وتطوراتها وحاجياتها، فنرى مثلا أن مصر على قلة المتعلمين فيها تشعر بوطأة وأزمة عطل يخشى أن يمتد لهيبها، وذلك راجع إلى كثرة العلوم النظرية وقلة العلوم التطبيقية أو العملية وإلى رداءة التوجيه فى أطوار التعليم، وأخيرا إلى ضعف التربية وعدم بث روح الاعتماد على النفس والإقدام والمجازفة والجلد لجسام الحوادث، ولهذا لا زلنا فى حاجة إلى الخبراء الأجانب نستقدمهم من الخارج لأعمالنا الفنية والصناعية والاقتصادية الكثيرة، مع أن فى مصر عنوانات ضخمة لمدارس وكليات صناعية وفنية، وفيها إدارة بعثات ومبعوثون درسوا فى الخارج والداخل وحصلوا على شهادات لها أسماؤها الدوية ولكنا مع كل هذا لم تنقطع بعد حاجتنا إلى هؤلاء الأجانب، وذلك لعدم التطبيق العلمى فى هذه المدارس ورضاء مبعوثيها بالانزواء فى وظيفة حكومية ذات مرتب مضمون بينما يدير الأجانب فى مصر دفة مرافقها الحيوية المختلفة، ولا شك أن روح التربية كل هذه التى تمثلت فى أوصال هذا الجيل مبعثها كما قلنا النقص فى التربية والإعداد فمنذ سنة ١٩٢٥ والبرامج تتجه وجهة طيبة ولكنها ليست كل شىء وإنما المهم هى الروح المشرفة على تنفيذها، ولعل فى الكلمة التى ألقاها سعادة محمد العشماوى بك وكيل المعارف السابق فى أحدى المناسبات ما يؤيد وجهة نظرنا فى هذه المرحلة وسعادته يقول :

”...فسياسة التعليم مرتجلة فى كل مراحله، فبالرغم من أن الأغلبية الساحقة من الشعب تتخبط فى ظلام الأمية والجهل، وبالرغم من أن ميادين النشاط الاجتماعى والفكرى المختلفة

لا تزال بكرا — نسمع صيحات متتالية من أوساط محترمة تخبر بأن عدد المتعلمين قد زاد عن حاجة البلاد، ونرى مشكلة عطال المتعلمين تزداد تعقيدا ، ونرى المعاهد المختلفة تضيق بالوافدين عليها فتردهم عن الأبواب وتباعد بذلك بينهم وبين حقهم الطبيعي فى المعرفة .. ولم يفصح المسئولون عن سياسة التعليم عن نياتهم، ولم تتبين البلاد فى أى الطريق تسير...".

وهذا رأى صحيح لرجل مارس التعليم حينا وأشرف عليه أحيانا ، فاذا أصدر اليوم رأيا فيه فإنما يصدره عن خبرة وعصبية، ويدل دلالة واضحة على أن الذين وضعوا سياسة التعليم لم يحددوا له رسالة صحيحة، ولم يوجهوه الوجهة النافعة للبلاد، ولم يحددوا له أهدافا معينة تتفق ووضعية البلاد جغرافية ومناخا وخصوبة وسكانا وثروة وتعليما مثلا يمكن أن نقول اليوم إن الأساليب التعليمية الصحيحة قد توطدت فى برنامجنا فى مختلف أدوار التعليم ، بل وحتى فى الجامعة مهد الدراسات العالية والبحوث والاستنتاجات — نرى الطالب يحنى على كتبه المقررة يستظهرها حتى إذا سألته رأيا فى ناحية فرعية من النواحى التى يدرسها ويتفحص فيها، لما عرف كيف يجيب لأنه سؤال خرج عن دائرة الكتب التى تحت يديه .

فالخطط التى يجب أن تشتمل عليها طرق تربية الجيل الجديد — يجب أن يكون من أهمها تعاون البيت والمدرسة فى سبيل خلق جيل جديد يحمل نفسية جديدة وبأسا جديدا وخلقا جديدا ، وأن تقوى الصلة بين التلميذ والمعلم فتصبح صلة تثقيف وتبادل آراء عن طريق الرغبة والحب فى تعرف كل مجهول له، لا فى مسائل النظريات وحدها، فليست رسالة المعلم قاصرة على التعليم المدرسى وحده لأنه جزء يسير من برنامج واسع ، بل يجب فتح مجال البحث أمام التلميذ ليقرأ ويطلع ليكون لنفسه فكرة خاصة به ويكتسب عقلية مستقلة تستطيع أن تكون مرحلة اتصال بين العقليات المصرية والأجنبية تبارى معها من سمو المدارك وترتبط معها فى أسباب العلم وتبادل المنافع وتتفاوض وإياها أحدث ما وصلت اليه الأفكار الحرة فضلا عن الجرأة والإقدام والابتكار والانشاء والنهوض بحياة الفكر والمعارف الى أوج الكمال ، ولا شك أن هذا هو المقصود من التعليم فى هذا العصر المتناحر المتنافس لا هذه المعلومات التى يصبونها فى آذان التلاميذ دون مراعاة لاتجاهاتهم وميولهم وعقلياتهم وقواهم وحاجة البلاد إلى ما يجب أن يتجه اليه التعليم ، فالمدارس فى كل أمة يجب أن تكون قطعة من حاجياتها العامة والخاصة، وغذاء روحيا وماديا لمن تقلهم أرضها وتظلهم سماؤها ولا أدل على أن مدارسنا عضو شاذ فى جسم الأمة وكمية مهملة لا يتصل بحاجاتها، ويعمل فى غير عدو معين — من قصورها عن سد حاجات الأمة فيما تحتاج اليه من الفنيين ، بينما نجحت المدارس الأجنبية فيمن تخرجهم من المصريين والأجانب الذين يملكون فى مصر الآن مقاليد السوق من حياتها المادية ، وذلك لأنها لم تفرض على تلاميذها استظهار كومة من الكتب ، بل أطلقت لذهنيتهم العنان ، وأفسحت لأفكارهم الميدان .

ففى البيت يجب أن تمنح الولد حق الاستقلال والحرية فى نشاطه وميوله تحت المراقبة الحكيمة والاشراف الرفيق بقدر ما تسمح به الظروف المنزلية ، وتتولى رعايته تحت المراقبة الحكيمة أو الخفية نظرا لغرارته وإيقاظا لغريزة الدفاع فيه ، فالطفل حين يشعر أنه فى حماية المربية

نامت فيه غريزة الدفاع عن النفس ، واستسلم لعالم من الضعف والتدليل طويل المدى ، مما قد يؤدى به ذلك إلى الميوعة والترف والانهيار الخلقى والمادى . فجدير إذن أن ننمى فى أولادنا نزعات الاستقلال الشخصى ، ونطمر فيهم معانى الرجولة بالضغط والحجر والتخويف والايذاء بالاهمال والتضييع والاعراض والسأم ، وأن نبعث فى الفتاة ونقوى فيها غريزة الزوجية والأمومة الكريمة ليكون هدفنا الأول فى الحياة بناء الجيل الصالح على أسس من الخلق الفاضل والوطنية الوثابة الحارة والتدين الرفيع .

ولاشك أن البيت الذى نجد فيه أبوين ذكيين ينيرون أن المستقبل يحتاج إلى جيل جديد يقوم على عقلية نشطة متجددة مدركة آملة ، لا تضغط إلا بقدر عند الضرورة ولا تتحكم لمجرد السلطة والسلطان ولا تهمل الرقابة سأماً أو ملالة أو ضعفاً — هو البيت الذى يعتبر مزرعة لتنشئة الجيل الجديد ورعايته ، وهو المدرسة الأولى التى يمكن أن تخرج لنا بناة المستقبل شجعانا أجرياء ، مؤمنون بفكرتهم متفانون فى واجبهم وثابون إلى المجد ، لا كهؤلاء الآلات الصماء ، أو قطعان السائمة ، همهم من الحياة أن يأكلوا كما تأكل الأنعام ، يقادون الى الذبح من حيث لايشعرون ، لا أمل لهم ولا فكرة ، ولا غاية لهم ولا رسالة ، سلبهم أهلوهم حيويتهم ، واغتصبوا استقلالهم وأماتوا فيهم حياة الأمل والطموح .

وليس معنى ماتقدم أننا نريد للشباب حرية مطلقة ، يتشجع بها على مطاولة أهله ، والاستهانة برؤسائه ، وتسفيه آراء غيره والخروج على ناموس الأدب العام ، وانما نريد له الحرية داخل حدود الآداب والتقاليد القومية ، ونريد له الاستقلال الشخصى ، لنتعهد فيه قوة الابتكار والاعتماد على النفس ، ونغذى فيه روح الأمل والطموح .

نقول يجب أن يبدأ هذا فى البيت ، وأن يستكمل فى المدرسة أو المعهد ، لتتصل الحلقات ، ولتتعاون الخلايا التربوية على خلق الجيل المنشود مؤمنا بالحرية والنظام والرجولة .

ونعود مرة — فنقول لولاة الأمور إن برامج التعليم أضحت عبأ لا يحتمل ولا يساعد على النهوض بالمستوى المطلوب ولا يسد حاجات البلاد فى أزمتها المادية الحادة والتربوية الناقصة ، والثقافية المرتفقة والخلقية المهلهلة ، فحسبنا ما انتهينا اليه من اضمحلال وما فاتنا من ثروات وأمجاد ، وماخرجت هذه البرامج من آلات صماء رضخت واستكانت وأرضخت معها أجيالا متعاقبة .

والى هنا نستطيع أن نقول إن البيت والمدرسة بوضعهما الحالى ، أصبحا لاينهضان ولا يساعدان على بناء الجيل الجديد الذى ننشده . نريد البيت معهدا خلقيا وجوا تربويا لاتقع عين الناشئة فيه الا على مثل كريمة ، ولا تسمع أذنه الا نماذج سامية ، سواء كان ذلك حول المائدة أو عند السمر ، أو فى مراح الرياضة ، أو فى النوم ، او عند المسير ، بل فى كل حركة وسكون ، حتى لاتسجل عدسة ذهنه الا كل ما هو سام رفيع .

ونريد المدرسة بعد ذلك متممة للبناء الخلقى والتربوى ، معدلة من البرامج مانحن فى حاجة إليه من نواحى العلم والفن والأدب وهذا ما يمكن أن ينهض بآمالنا ويساعد على مهمتنا فى انشاء الجيل الجديد جنودا للوطن ، وأعضاء نافعين فى جسم الانسانية .

سامى محمد
سكرتير تحرير المجلة